

دوافع الدراسة الصوتية عند الفلاسفة المسلمين ومصادرها

د. فطيمة بورحلة

جامعة سيدي بلعباس

ملخص:

احتضن الدرس الصوتي في بؤادره الأولى طائفة من العلماء والدارسين على اختلاف تخصصاتهم من نحاة ولغويين وقرّاء ومفسّرين وحتى فلاسفة، وقد يقف القارئ وهو يدلف صفحات متونهم أمام مادة صوتية خصبة

The phonetic lesson embraced in its first signs a range of scholars and scholars of different specialties from linguists, linguists, readers, interpreters and even philosophers.

إنّ ما توصّل إليه العرب في مجال الدّراسات الصّوتية يعدّ سبقا كبيرا ، إذا ما قورن بنتائج الدّراسات الصوتية الحديثة مستعينة بوسائل التّكنولوجيا المتطورة فلم تقف إسهامات علماء العربيّة القدامى عند ماهية الصوت فحسب، بل تجاوزت ذلك إلى تطبيق مبادئ علوم الطّبيعة كعلم الفيزياء وعلم التّشريح، ومن هؤلاء الفيلسوف والطّبيب ابن سينا الذي اتّخذت عنده الدّراسة الصّوتية منحى آخر ، فجاء حديثه عن ماهية الصّوت وأسباب حدوثه حديث العالم بأسرار الطّبيعة ، إذ يقول في سبب حدوث الصوت « أظن أن الصوت سببه القريب تموج الهواء دفعة بسرعة وبقوة من أي سبب كان . والذي يشترط فيه من أمر القرع عساه ألا يكون سببا كلياً للصوت ، بل كأنّه سبب أكثرى ، ثم إنّ كان سببا كلياً فهو سبب بعيد ، ليس السبب اللاصق لوجود الصوت »¹. وقد احتضن الدّرس الصّوتي في بؤادره الأولى طائفة من العلماء والدارسين على اختلاف تخصصاتهم ، من نحاة ولغويين وقرّاء ومفسّرين وحتى فلاسفة ، فيقف القارئ وهو يدلف صفحات متونهم أمام مادة صوتية خصبة. يقرّ برجشتراسر أنه "لم يسبق الأوروبيين في هذا إلا قومان هم العرب والهنود"²، فكان البحث الصوتي عند العرب شركة بين النّحاة واللّغويين والقرّاء وأهل الإعجاز والفلاسة .

أ / عند النّحاة واللّغويين :

¹ رسالة أسباب حدوث الحروف، ابن سينا، تح: محمد حسان الطيان و يحي مير علم ، تقديم ومراجعة :شاكّر الفحام وأحمد راتب النفّاخ مطبوعات مجمع اللغة العربيّة ، دمشق ، ط1 ، 1403 هـ - 1983 م ، ص 56

- التطور النحوي للغة العربية، برجشتراسر ، إخراج وتصحيح د/رمضان عبد التّواب ، مكتبة الخانجي بالقاهرة ودار² الرفاعي بالرياض ، 1982 ، ص 11

تعدّ المعاجم العربية من مصادر الدّرس الصّوتي ، وذلك لما حوته من قضايا صوتية في مقدّماتها ، فهذا الخليل بن أحمد الفراهيدي أدرك ذلك فقدّم لدارس اللّغة أوّل تصنيف للأصوات حسب موضع النّطق ، أو حسب الأحياز والمخارج ، كما ذكر في مقدّمة "العين" يروي عنه تلميذه اللّيث بن المظفر فقال: «قال الخليل ، في العربية تسعة وعشرون حرفا : منها خمسة و عشرون حرفا صحاحا لها أحيازا ومدارج ، وأربعة أحرف جوف وهي : الواو والياء والألف اللّينة والهمزة»³، وبذلك يكون عدد مخارج الأصوات عند الخليل سبعة عشر مخرجا .

وقد استند في ذلك إلى التّجربة الخاصة التي دعاها بذوق الحروف ، يذكر أحد الدّارسين مشيدا بجهود الخليل وعلمه الواسع ونظره الثّاقب فيقول: «إذا عرف المرء أنّ معظم هذه الأسس ضمّتها مقدّمة كتاب العين التي تقع في ثلاث عشرة صفحة هاله ما انطوى عليه عمل الخليل من ثراء في التفكير ودقّة في الاستنباط وعمق في فهم خصائص العربية»⁴، حيث أسّس مادّته على نظرية صوتية ، كانت منعطفا مهمّا في تاريخ علم الأصوات .

وتوالى البحث في هذه المادة الصوتية الخصبة ، فخلفه تلميذه سيبويه الذي قدّم دراسة لأصوات العربية أوفى وأكثر دقّة ، ذلك لأنها ارتبطت بظاهرة الإدغام حيث أدرك سيبويه أنّه لا يمكن أن تدرس دون تبيان مخارج وصفات الأصوات فقال: «وإنّما وصفت لك حروف المعجم بهذه الصفات لتعرف ما يحسن فيه الإدغام وما يجوز فيه وما لا يحسن فيه ذلك ولا يجوز فيه ، وما تبدّله استنقالا كما تدغم ، وما تخفيه وهو بزنة المتحرك»⁵، فقد جعل سيبويه من هذه الدّراسة لأصوات اللغة مدخلا انطوت تحته ظاهرة الإدغام .

وبالتالي أدّى هذا التصنيف للأصوات إلى تقديم دراسة صوتية شاملة لظاهرة الإدغام التي نالت إعجاب الدارسين إلى درجة جعلت المستشرقين يمدحون عمله العلمي أمثال برجشتراسر ، فبعد أن ذكر مخارج الأصوات عند سيبويه قال: « فهذا كلّّه صحيح ما فيه شك من وجهة نظر علماء الغرب»⁶ ، وجاء تناول سيبويه للأصوات مبنيا على الأساس الفسيولوجي ، أي حسب المخارج والصفّات ك: الجهر والهمس ، والمسؤول عنهما ما يعرف

- العين ، الخليل بن أحمد الفراهيدي ، تحقيق د/ إبراهيم السامرائي ومهدي مخزومي، دار إحياء التراث ، بيروت ، ص 10.³

4 - أصالة علم الأصوات - عند الخليل من خلال مقدّمة العين - د/ أحمد محمد قدور، دار الفكر، دمشق ، ط2 1424 هـ / 2003 م ، ص 12

- الكتاب ، سيبويه ، تحقيق وشرح محمد عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ودار الرفاعي بالرياض ، ط2⁵

1402 هـ / 1983 م ، ج 4 ، ص 436 .

- التطور النحوي ، برجشتراسر ، ص 13 .⁶

عند علماء الأصوات المحدثين بتذبذب الوترين الصوتيين ، وحسب طريقة النطق فنجد الأصوات الشديدة والرخوة ، يقول سيبويه: « هذا باب عدد الحروف العربية ، ومخارجها ، ومهموسها ومجهورها وأحوال مجهورها ومهموسها واختلافها ، فأصل حروف العربية تسعة وعشرون حرفاً: الهمزة، والألف، والهاء، والعين، والحاء، والغين، والخاء، والكاف، والقاف، والضاد، والجيم، والشين، والياء، واللام، والراء، والنون، والطاء، والذال، والتاء، والصاد، والزاي، والسين، والظاء، والذال، والثاء، والفاء، والباء، والميم، والواو»⁷. ويظهر من هذا التقسيم ، أنّ النّحاة واللّغويين – سيبويه ومن جاء بعده – لم يختلفوا في عدد أصوات العربيّة ، وبالتالي في مخارجها فأقرّوا بستة عشرة مخرجاً ، مما أدى إلى إلغاء مخرج الجوف الذي أقرّه الخليل قبلهم⁸.

ويمكن القول إنّ دراسة الخليل وسيبويه للأصوات اللغوية قامت على مبدأ علمي صحيح ، لأنّها دراسة وصفية واقعية قائمة على الملاحظة الذاتية وبعيدة عن الافتراض والتأويل ، وهذا ما يؤكده علماء الأصوات المحدثون " لست أشك لحظة واحدة في أن هؤلاء العلماء الأجلاء قد استطاعوا بالملاحظة فقط – ومعها كل الصعوبات التي تواجه الطليعة في العادة – أن يصلوا إلى وصف دقيق للأصوات العربية دون أن يكون لهم من الوسائل الآلية التي يستخدمها المحدثون "9، فلا يمكن تجاوز الجهد الصّوتي الكبير الذي قدّمه هؤلاء .

انتقل الدّرس الصّوتي بين القراء والنّحاة واللّغويين حتى وصل إلى ابن جني الذي سلك في هذا العلم مسلكاً متميّزاً حيث أدرك طبيعة اللّغة ووظيفتها عندما عرفها بأنّها

"أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم"¹⁰، وهي السّمة البارزة في اللغات كونها كلاماً منطوقاً ، فقد عرف الإنسان الكلام المنطوق قبل أن يعرف الكتابة بزمان طويل.

وقد عني أبو الفتح بدراسة الأصوات في كتابه "سر صناعة الإعراب"، حيث عرض لجهاز النطق الذي يتألف على حدّ قوله من " الصدر والحلق والقم والأنف " ، فيقول: « لما اختلفت أشكال الحلق والقم والشفتين مع هذه الأحرف الثلاثة* اختلف الصّدى المنبعث من الصدر»¹¹

- الكتاب ، سيبويه ، ج4 ، ص 431 .⁷

- ينظر، ظواهر التشكيل الصوتي عند النحاة واللغويين العرب حتى نهاية القرن الثالث الهجري، رسالة دكتوراه في⁸

اللغة ، المهدي بوروبة ، جامعة أبي بكر بلقايد تلمسان ، ص 89 .

- اللغة العربية معناها ومبناها، تمام حسان، عالم الكتب، بيروت، ط3، 1418 هـ/ 1998 م، ص49 .⁹

- الخصائص، أبو الفتح عثمان بن جني، تحقيق: محمد علي النجار، عالم الكتب، بيروت، ط1 1427 هـ /

10

2006 م ، ص67 . * يقصد بها : الالف والواو والياء .

2 - سر صناعة الإعراب، أبو الفتح عثمان بن جني، تحقيق: محمد حسن إسماعيل وأحمد شحاتة عامر، ط2

، 1428 هـ / 2007 م ، دار الكتب العلمية بيروت ، ج1 ، ص21 .

، يقصد ابن جني من قوله "من الصدر" صدى الذبذبات مع المجهور والتي يحس بها عند وضع اليد على الصدر ، كما تشعر بها عند وضع اليد على الجبهة أو الأصبع في الأذن . فقاربت رؤيته بذلك الدرس الصوتي الحديث.

وفي موضع آخر من كتابه يفصل ابن جني في جهاز النطق عندما شبهه بالناي وبوتر العود فيقول:«... فإذا وضع الزّامر أنامله على خروق النّاي المنسوقة وراوح بين أنامله ، اختلفت الأصوات ، وسمع لكل خرق منها صوت لا يشبه صاحبه ، فكذلك إذا قطع الصوت في الحلق والفم ... ونظير ذلك أيضا وتر العود ، فإنّ الضّارب إذا ضربه وهو مرسل سمعت له صوتا... فالوتر في هذا التّمثيل كالخلق»¹².

وغير بعيد عن هذا المعنى يربط ابن جني علم الأصوات بعلم الموسيقى تمثيلا وتقريبا فيقول: «ولكن هذا القبيل من هذا العلم، أعني علم الأصوات والحروف له تعلق ومشاركة للموسيقى ، لما فيه من صناعة الأصوات والنغم» .

أمّا تعريفه للصوت فهو " عرض يخرج مع النفس مستطيلا متّصلا حتى يعرض له في الحلق والفم والشفتين مقاطع تنثيه عن امتداده واستطالته " ¹³، وبهذا يكون ابن جني قد تميّز عن سابقيه بدراسة علم الأصوات كعلم قائم برأسه فقدّم صورة عن العمليّة الطّبيعية لإنتاج الكلام ، ليوضح تقسيم الأصوات حسب المخارج وتقسيمها إلى أصوات صامتة وأخرى صائتة .

ب / عند القراء :

نشأت الدّراسات الصّوتية عند العرب في القرن الثّاني للهجرة خدمة للقرآن الكريم ولعلّ ظهور علم التّجويد والقراءات القرآنية جاء لوضع أسس متينة للقراءة الصّحيحة والنّطق السّليم للذكر الحكيم ، وبخاصة مع دخول الأقوام الأعجمية في الإسلام ، وتفشّي اللّحن وتسرّبه إلى الألسنة العربيّة مع مرور الأيام .

ويبين الفراء وهو يقدّم لعلم التّفسير ضرورة أن يحيط المفسّر للقرآن الكريم بعلم القراءات الذي يدرس وضعية الأداء الصّوتي فيقول:«... وعلم القراءات لأنه يعرف به كيفية النطق

- نفسه ، 1 / 21 - 22 .¹²

- نفسه ، 1 / 22 .¹³

بالقرآن»¹⁴ ، فعلمي القراءات والتجويد بمثابة دعامة قويّة لعلم الأصوات. ومن ثم فإنّ محاولة أبي الأسود الدؤلي ضبط القرآن الكريم بالنّقط عن طريق ملاحظة حركة الشّفتين ، بنيت على قواعد وأسس صوتية من ملاحظة شكل الشّفتين أي طريقة النطق ، إذ قال لكتابه وهو يملّي عليه « إذا رأيتني قد فتحت فمي بالحرف ، فانقط نقطة على أعلاه ، وإذا ضمنت فمي ، فانقط نقطة بين يدي الحرف ، وإذا كسرت فمي فاجعل النقطة تحت الحرف ، فإن أتبعت شيئا من ذلك غنة فاجعل النقطة نقطتين»¹⁵، وتعدّ إشارته هذه من الإشارات المهمة في نشأة هذا العلم .

وقد دفعت قراءة القرآن الكريم القراء إلى صيانة اللسان العربي من الزّلل والانحراف وذلك بتأمل أصوات اللغة العربية وملاحظتها ملاحظة ذاتية أنتجت في وقت مبكر دراسة جادة للأصوات العربية ، من وصف لمخارج الأصوات وطريقة نطقها مع تبيان الصفات الخاصة بكل صوت . يقول د . محمد خير حلواني «إنّ القراءة القرآنية هي التي دفعت إلى ظهور علم الأصوات التي نضج عند العرب فالمقرئ كان مضطرا إلى إخراج الحروف مخرجا فصيحاً ، وكان مضطرا أيضا إلى معرفة المدّ وقوانينه»¹⁶، وما جهود علماء التجويد والقراءات القرآنية إلّا لبنة أساسية من لبنات الدّرس الصوتي ، عمدوا إلى تقديم منهج تعليمي دقيق ، ويتلخّص منهجهم بوضع مؤلّفات ترصد الخطأ وتعالجه لتحصيل النطق العربي الفصيح الصحيح ، فكان كتاب "السّبعة في القراءات" لصاحبه أبي بكر بن مجاهد¹⁷ أول مؤلّف يستثمر المعطيات الصّوتية في تحليل القراءات.

وعليه فقد ساهمت كتب القراءات والتّجويد بالشّيء الوفير في إثراء حقل الدّراسات الصّوتية ، ف" أول ما يجب على مريد إتقان قراءة القرآن تصحيح إخراج كلّ حرف من مخرجه المختص به تصحيحا يمتاز به عن مقاربه ، وتوفية كلّ حرف صفته المعرفة به ، توفية تخرجه عن مجانسه . يعمل لسانه وفمه بالرياضة في ذلك إعمالا يصير ذلك له طبعا وسليقة" ¹⁸، فالقراءة الصّحيحة تكتسب بالرياضة والتّكرار .

¹⁴- معاني القرآن ، أبي زكريا يحيى بن زياد بن عبد الله الفراء، قدم له وعلق عليه ووضع حواشيه وفهارسه: إبراهيم شمس الدين ، دار الكتب العلمية ببيروت، ط1، 1423 هـ/ 2002 م ، ص 7/1 .
- المحكم في نقط المصاحف ، أبو عمرو الداني ، تحقيق عزة حسن ، دمشق ، دط ، 1960 م ، ص 42 .

¹⁵- المفصل في تاريخ النحو العربي ، محمد خير حلواني ، مؤسسة الرسالة ، ط1 ، 1979 م ، ص 103 .

¹⁶- هو أبو بكر أحمد بن موسى ، قرأ على عبد الرّحمن بن عبدوس وغيره ، وهو أوّل من سبع السّبعة ، توفي سنة 324 هـ . ينظر، ظواهر التشكيل الصوتي عند النحاة واللّغويين العرب ، ص7 .¹⁷
² - النشر في القراءات العشر ، محمد بن محمد ابن الجزري ، مراجعة : علي محمد الضباع ، دار الفكر ، بيروت ، دت . 1 / 214 - 215 .

إنّ علم الأصوات عند العرب هو علم عربي مستقل بمصطلحاته ومفاهيمه فقد صرّح فيرث قائلا: «علم الأصوات شَبَّ ونما في أحضان لغتين مقدّستين هما العربية والسّنسكريتية»¹⁹، وهو ما أجمع عليه الدّارسون على أنّ الدّراسات الصّوتية نشأت وتطورت عند علماء العربية القدامى من نحاة ولغويين وقراء حيث "حرص علماء اللغة القدماء وخاصة الهنود والعرب ، على تدريب أذن المتكلّم على السّماع ولسانه على النطق"²⁰. فالذي يعود إلى وصف سيبويه وعلماء التجويد من بعده لأصوات اللغة العربية لا يرى فرقا كبيرا بين سيبويه وعلماء الأصوات المحدثين في النصف الأوّل من القرن العشرين .

غير أنّ ذلك لم يمنع من وجود بعض التقصير في حقل الدراسات الصوتية لدى هؤلاء وبخاصة ما تعلق بالدراسة المقطعية وما يتصل بها من نبر وتنغيم ، وذلك راجع إلى التزامهم بالتركيب الخطي فانصرفوا عن دراستها . يرى أحد المحدثين أنّ كتب القراءات "حين تعرض لأصوات اللغة، تكتفي ببضع صفحات، تصف فيها مخارج الحروف وصفاتها ، في صورة مقتضبة مختصرة ، لا تخلو من الغموض أو التحريف"²¹، ولعلّ سبب هذا التقصير يعود إلى أنّ منهجهم لم يكن لدراسة النظام الصوتي بجميع جوانبه بل كان لغاية معينة .

وبناء على ما تقدّم ، فإن علماء العربية القدامى قد انطلقوا في دراساتهم للأصوات اللغوية على أسس وأهداف مختلفة أهمها صيانة القرآن الكريم وحفظ اللسان العربي من اللحن بعد أن استفحل اللّحن على ألسنة الناطقين بالعربية.

ولم ينحصر الدّرس الصوتي على هؤلاء فقط ، بل تعدّى إلى الفلاسفة الذين أثروا هذا الحقل على الرغم من أنّ دراساتهم للأصوات لم تكن مسعاهم منذ البداية ، فكانت لهم وقفة متميزة مع أصوات العربية ، إذ اعتمدوا المنطق في دراساتهم من خلال الملاحظة والاستنباط ، وعالجوا الأصوات معالجة فيزيائية أكوستية.

- التراث العربي، مناهج البحث اللغوي عند العرب في ضوء علم اللغة الحديث، ص116، نقلا عن علوم الصوتيات، عبد العزيز أحمد علام / عبد الله ربيع محمود، مكتبة الرشد، ط3، 1425 هـ/2004 م، ص70.¹⁹

- المدارس الصوتية عند العرب-النشأة والتطور- علاء جبر، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1427 هـ / 2006 م²⁰

- مناهج البحث اللغوي، رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي بالقاهرة ودار الرفاعي بالرياض، ط1403، 1هـ²¹

يؤكد أحد المحدثين أنّ " للفلاسفة المسلمين الفضل الكبير في بناء الصّرح العلمي عند العرب وذلك لما قدّموه من دراسة للغة بصفة عامة ودراسة للأصوات بصفة خاصة"²²، فكان البحث اللغوي واحدا من العلوم التي تناولوها وأغنوها بدراستهم العلمية الدّقيقة .

لقد برع الفلاسفة في حقل الدراسات الصوتية ، وتعددت زوايا النظر عندهم ، فنهجوا منهاجا مغايرا في دراسة الأصوات اللغوية ، من حديث عن ماهية الصوت في حدّ ذاته ، وتمييزهم بينه وبين الحرف ، كالفارابي (339 هـ) الذي التفت إلى آلية النطق فكان له فضل السّبق ، إذ لم يتحدث أحد قبله عن كيفية حدوث الأصوات بل كانوا يحومون حول وصف الأصوات ، وأحوال مجهورها ومهموسها ، ومواضع نطقها وما إلى ذلك .

قدّم إخوان الصّفا دراسة فيزيائية وسمعية للأصوات وصفاتها، وانتقال الصوت في الهواء، فكانت معهم أول إشارة إلى المعالجة الفيزيائية للصوت وتناولوا مفهوم الصوت الطبيعي واللّغوي ، والمنطقي وغير منطقي ، فالأصوات "نوعان: طبيعية وآلية ، فالطبيعية هي كصوت الحجر والحديد والخشب والرعد والريح وسائر الأجسام التي لا روح فيها من الجمادات ، والآلية كصوت الطبل والبوق والزممر والأوتار وما شاكلها والحيواني نوعان منطقيّة وغير منطقيّة ، فغير المنطقيّة هي أصوات سائر الحيوان غير الناطقة ، وأما المنطقيّة فهي أصوات النّاس"²³، يكشف لنا هذا النص مدى الدّقة والفهم لنوع الصوت عند إخوان الصّفا . الذين تحدّثوا عن جهاز النّطق ، لينتهوا بتعريف الغناء والألحان وأنواعها ، مما يدلّ على اهتمام العرب آنذاك بالموسيقى بوصفه علما وفنّا وربطها بعلم الأصوات كما سبق مع ابن جني وإخوان الصّفا.

وخصص الفارابي معظم أجزاء كتابه "الموسيقى الكبير" لشرح أصول صناعة الموسيقى ليختم دراسته بمقالة عن الأصوات وأنواعها ، وجهاز النطق...

كما التفت الفارابي إلى حقيقة المقطع وأعطاه مفهوما جديدا متجاوزا بذلك مفهوم أرسطو للمقطع فيقول:« وأما المقطع الواحد من مقاطع الاسم فليس بدال لكنّه حينئذ صوت فقط ... مثل قولنا: أبكم في العربية ، فإن قولنا: أب ، وقولنا: بكم كل واحد منهما دال على انفراده ، لا من حيث هو جزء للاسم ولكن يقال في أمثال هذه أنّ أجزاءها دالة بالعرض »²⁴، ويدلّ اختيار الفارابي لكلمة أبكم دلالة قاطعة على إدراكه المقطع الصوتي بمعناه الاصطلاحي الثابت في الدّرس الصوتي الحديث .

- المدارس الصوتية عند العرب ، ص 151 .²²

- رسائل إخوان الصّفا ، دار صادر بيروت ، دط ، دت ، ج 1 ، ص 188 – 189 .²³

- شرح كتاب أرسطو طاليس في العبارة للفارابي ، عني بنشره وقدم له : ولهم كوتش اليسوعي وستانلي مارو²⁴

لقد نظر الفلاسفة إلى الدراسة المقطعية بداية من الفارابي الذي تناول المقطع على أنه نتيجة ائتلاف حرف غير مصوت – صامت – بحرف مصوت – صائت – فيقول: «المقطع مجموع حرف مصوت وحرف غير مصوت»²⁵، ثم بين أركان المقطع فرأى أنّ " الحروف منها مصوت ومنها غير مصوت ، والمصوتات منها قصيرة ومنها طويلة"²⁶.

وبالتالي يمكن القول إنّ الفارابي قدّم للدرس الصوتي العربي خدمة لا نظير لها تتعلق بالمقطع الصوتي ، حيث حدّد المفاهيم، فكانت دراسته ردّا على كل من أنكر جهود الأوائل فيما يتعلق بالدراسات ما فوق المقطعية. في حين نلّف القاضي عبد الجبار ومن أجل تأكيد مسلّماته كفكرة "خلق القرآن" يخصص جزءاً من كتابه "المغني في أبواب التوحيد والعدل" لتأكيد فكرته فنجدّه عالّج معاني صوتية هامة فيرى أنّ الكلام " حركات تفرع الهواء ، وتحصل في الجوّ مع تقطع الهواء"²⁷، فالقاضي يطرح مسألة حدوث الصوت طرّحاً دقيقاً ، أي أنّ السبب الرئيس في حدوثه عملية القرع ، ووجود الوسط الناقل هو الهواء . ويبدو أنّ القاضي عبد الجبار كان متأثراً إلى حد ما بكلام ابن سينا فكثيراً ما كان يستعين بآرائه إذ جاء في تعريفه للكلام مايلي " من قول أبي علي رحمه الله ، أنّ الحروف غير الأصوات وأنّ الكلام هو الحروف فعلى طريقته إنّما نقول : إنّ الصوت يوجد معه إذا كان مسموعاً ، لأنّ الكلام هو الصوت عنده فكيف يصح أنّ نقول في بيان حد الكلام : إنّهُ أصوات مقطّعة " ²⁸ ، وقد حظي الدرس الصوتي عنده بالاهتمام من أجل أنّ يثبت أنّ القرآن مخلوق وإلا لصدقنا بأنّ الله تعالى آلة تصويت .

غير أنّ الإمام الرّازي في كتابه " التفسير الكبير " جاء اهتمامه بالدرس الصوتي مرتبطاً بتفسير القرآن الكريم ، يقول الرّازي: «واعلم أنّ مباحث الحرف والصوت وتشرح العضلات الفاعلات للحروف ، وذكر الإشكالات المذكورة في قدم القرآن أمور صعبة دقيقة ، فالأوّلَى الاكتفاء بما ذكرناه ، والله أعلم بالصّواب »²⁹، فالمفسر لكتاب الله يحتاج إلى الإحاطة باللغة ، مدرّكاً أسرارها ، عارفاً بلهجات العرب ، وهذا ما يفسّر إفراد الإمام الرّازي مباحث صوتية جديرة بالدراسة والاهتمام . وقد يدفع شغف المعرفة وحب الاطلاع كابن سينا الذي روي عنه أنّه "كان جالساً يوماً بين يدي الأمير وكان أبو منصور الجبان

اليسوعي ، ط2 ، دار المشرق، بيروت، ص49.

- نفسه ، ص 49 .²⁵

- شرح كتاب أرسطو طاليس في العبارة للفارابي، ص49 .²⁶

²⁷ - المغني في أبواب التوحيد والعدل ، القاضي عبد الجبار ، نظم نصه إبراهيم الابيا بإشراف د / طه حسين ، وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، مطبع دار الكتب، ط3 رجب 1380 هـ/ديسمبر 1960 م الجزء الرابع ، خلق القرآن ص 40 – 41 .

- المغني ، ج7 / ص 15.²⁸

- التفسير الكبير ، الفخر الرّازي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ط3 ، دت، ج1 ، ص11 .²⁹

حاضرا فجرى في اللغة مسألة تكلم ابن سينا فيها بما حضره فالتفت أبو منصور إليه قائلا : إنك فيلسوف وحكيم ، ولكن لم تقرأ من اللغة ما يرضي كلامك فيها . فاستنكف ابن سينا من هذا الكلام وتوفّر على درس كتب اللغة ثلاث سنين ، واستهدى كتاب تهذيب اللغة من خراسان للأزهري ، فبلغ ابن سينا في اللغة طبقة قلما مثلها ، وأنشأ ثلاث قصائد ضمنها ألفاظا غريبة في اللغة³⁰.

ولا شك في أن ابن سينا واحد ممن أثّر وأثرى هذا المجال بفكره الموسوعي وأفقه اللامحدود ، كيف لا وهو الذي جمع وأتقن عدة علوم كعلوم الفيزياء والطب التي استعان بها ليصف العملية العضوية في إنتاج الصوت والأسباب المحدثة له ناهيك عن علوم اللغة والنحو والتجويد والفلسفة . كما يعدّ ابن سينا المعلم الثاني بعد الفارابي في مجال علم الموسيقى ، إذ إنّ الكثير من بحوث ابن سينا تتعلق بفن الموسيقى فقد كان ضليعا في هذا العلم.

وبناء على ما سبق ، فإنّ العرب اهتموا بعلم الموسيقى كالفارابي الذي ألف كتابا ضخما سمّاه " الموسيقى الكبير ، وابن جني حين شبّه جهاز النطق بآلات الموسيقى المختلفة ، وفي ظل الاهتمام بهذا العلم اعتبر ابن سينا "نشأة وتطور الموسيقى هو المحاكاة التي تنتج عن التغير الفنّي لنبرة الصّوت البشري"³¹، إذ مكّنه حسّه الموسيقي وعلمه بالتشريح من تحديد مخارج الأصوات بدقّة متناهية.

لعل أدقّ مؤلّف لابن سينا وصل إلينا في مجال الدّراسة الصوتية هو "رسالة أسباب حدوث الحروف" وهي رسالة موجزة مقسّمة على ستّة فصول ، لكنّها على صغر حجمها جليلة جديدة لما حوته من دراسة جادة وواضحة، تخالف ما أثر من دراسات صوتية سابقة ، حيث وصف فيها آلية النّطق وتشريح الحنجرة واللسان ووصل فيها حدّ الإبداع.

وهكذا نجد لأول مرّة في العربية في عصر ابن سينا فصولاً تناولت أعضاء النّطق وظاهرة الصوت والفرق بين الصوت والحرف، وقد أفاد هنا من مصطلحات صوتية جديدة لم ترد قبله مثل: المحبس ، المركب والمفرد ... كما ضمّن كتابيه القانون في الطب والشفاء مفاهيم جديدة ومهمة في حقل الدراسة الصوتية ، تخصّ الدّراسة التشريحية والتشكيلية والأدائية من مقطع صوتي ونبر وتنغيم .

- عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، ابن أبي أصيبعة ، تحقيق نزار رضا ، مكتبة الحياة ، بيروت ، 1965³⁰

- ابن سينا والموسيقى، ألكسندر جمايف، تر: نايف أبو كرم، مجلة التراث العربي، العددان: 15 - 1984، 16، ص224³¹

فجمعت أبحاثه بين اتجاهين اثنين ، بين علم الفيزياء من حدوث الصوت وانتقاله عبر وسط كالهواء إلى إدراكه بالأذن ، وهنا تبرز آراء ابن سينا الطبيعية العالم بخبايا الأجرام وقوانين حركاتها وسكناتها ، إضافة إلى علم التشريح الذي اهتدى به إلى معرفة أعضاء التصويت ووظيفتها والتمييز بينها.

فكانت السمة البارزة والمميّزة لأبحاث ابن سينا تأكيد الجوانب الطبيعية في الظاهرة الصوتية ، مما جعل دراسته تكاد تطابق الدراسات الصوتية الحديثة إذ "اهتم المحدثون في دراستهم بالدراسة الطبيعية (الفيزيائية) وجعلوها مدخلا أساسيا في دراستهم الصوتية ومنطلقا لدراسة علم الأصوات النطقي"³²، باعتبار الصوت ظاهرة طبيعية ينشأ نتيجة لاهتزاز جسم ما في الهواء . ونذكر على سبيل المثال المؤلفات الآتية الأصوات اللغوية، الكلام إنتاجه وتحليله، دراسة السمع والكلام، ودراسة الصوت اللغوي³³ .

وبين ما توفر لديه من مادة بحث أكثر دقة انعكف على دراستها وتصويب خطئها وإزالة غامضها والتي اعتمدت على المنهج والفكر اليونانيين المستنبط من كتبهم اليونانية المترجمة . بحيث غدت حركة الترجمة عقول العلماء و رفدتهم بأصول ومبادئ أثرت الدراسات اللغوية عامة والصوتية خاصة .

وبالتالي كان للدراسة الصوتية لدى الفلاسفة رافدان أحدهما تراثي يتمثل في دراسة النحاة واللغويين والقراء والآخر تراث اليونان من خلال الترجمات، وتجدر الإشارة هنا إلى أن ابن سينا لم يستند في دراسته إلى آراء سابقه من نحاة ولغويين كما هو الأمر مع باقي الفلاسفة بل جاءت دراسته مميزة لم يسبق إليها ، ومن ذلك أن ابن سينا جعل الهمزة والهاء من الحنجرية بخلاف من سبقوه . كما وصف عملية التصويت منذ منشئها إلى إدراكها "ومن الطّريف أن يتناول ابن سينا موضوعا معاصرا في علم الأصوات تنبه إليه العلماء في الثمانينات بخاصة ألا وهو موضوع طبيعة الصوت اللغوي وعلاقته بالتواصل الإنساني"³⁴ ، فقد طرح ابن سينا مسألة طبيعة الصوت اللغوي وكيفية انتقاله وصولا إلى العملية السمعية . فالسمع بالنسبة للإنسان يمثل وسيلة من وسائل الاتصال بينه وبين العالم الخارجي . فضلا عن دراسته لعلم الأصوات النطقي ووقوفه على أعضاء النطق ، وحديثه عن الأصوات العربية وكيفية حدوثها واختلاف كل صوت عن غيره .

لقد حقّق الفلاسفة المسلمون في مجال الدراسة الصوتية تطورا علميا، يشهد له الدّارسون ، وتنوعت جوانب دراستهم ، فارتبطت الظاهرة الصوتية لديهم بالجانب الطبيعي

- المدارس الصوتية عند العرب ، علاء جبر محمد ، ص154 .³²

- إبراهيم أنيس ، عبد الرحمن أيوب ، سعد مصلوح ، أحمد مختار عمر .³³

- علم الصوتيات عند ابن سينا ، محمد صالح الضالع ، دار غريب للنشر والتوزيع ، دط ، دت ، ص38

³⁴ .

أكثر من غيره وربما يرجع ذلك إلى طبيعة فكرهم الفلسفي الذي يعتمد على العقل في الوصول إلى الحقائق .

وابن سينا في تناوله للظاهرة الصوتية ، رسم حدودها بين مادية الصوت في تحققها الفيزيائي والنطقي ، وبين وظيفته في تمييزه لمعنى عن آخر. وكان الطرح الفيزيائي لظاهرة الصوت أكثر حضورا عنده من غيره ، وقد استفاد فيه ، مما يؤكد عمقه في الطرح ، ففي هذا المسار يتحدد سبب حدوث الصوت، وانتقاله ، وإدراكه .

المصادر:

- 1- رسالة أسباب حدوث الحروف، ابن سينا،تح:محمد حسان الطيان و يحي مير علم ، تقديم ومراجعة :شاكر الفحام وأحمد راتب النفاخ مطبوعات مجمع اللغة العربية ، دمشق ، ط1 ، 1403 هـ - 1983 م.
- 2- التطور النحوي للغة العربية، برجشتراسر، تح د/رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي بالقاهرة ودار الرفاعي بالرياض، 1982
- 3- العين ، الخليل بن أحمد الفراهيدي ، تحقيق د/ إبراهيم السامرائي ومهدي مخزومي، دار إحياء التراث ، بيروت.
- 4- أصالة علم الأصوات عند الخليل من خلال مقدمة العين د/ أحمد محمد قدور، دار الفكر، دمشق ، ط2 1424 هـ / 2003 م .
- 5- الكتاب ، سيبويه ، تحقيق وشرح محمد عبد السلام هارون،مكتبة الخانجي بالقاهرة،ودار الرفاعي بالرياض ، ط2 1402 هـ / 1983 م ، ج4.
- 6- ظواهر التشكيل الصوتي عند النحاة واللغويين العرب حتى نهاية القرن الثالث الهجري، رسالة دكتوراه في اللغة، المهدي بوروبة ، جامعة أبي بكر بلقايد تلمسان.
- 7 - اللغة العربية معناها ومبناها، تمام حسان، عالم الكتب، بيروت، ط3، 1418 هـ/ 1998 م.
- 8- الخصائص، أبو الفتح عثمان بن جني، تحقيق:محمد علي النجار، عالم الكتب، بيروت، ط1 1427 هـ / 2006 م.
- 9 - سر صناعة الإعراب،أبو الفتح عثمان بن جني،تحقيق:محمد حسن إسماعيل وأحمد شحاتة عامر، ط2 ، 1428 هـ / 2007 م ، دار الكتب العلمية بيروت ، ج1.
- 10- معاني القرآن ، أبي زكريا يحي بن زياد بن عبد الله الفراء،قدم له وعلق عليه ووضع حواشيه وفهارسه: إبراهيم شمس الدين ، دار الكتب العلمية بيروت، ط1، 1423 هـ/ 2002 م.
- 11- المحكم في نقط المصاحف ، أبو عمرو الداني ، تحقيق عزة حسن ، دمشق ، دط ، 1960 م.
- 12 - المفصل في تاريخ النحو العربي ، محمد خير حلواني ، مؤسسة الرسالة ، ط1 ، 1979 م.
- 13- النشر في القراءات العشر ، محمد بن محمد ابن الجزري ، مراجعة : علي محمد الضباع ، دار الفكر ، بيروت ، دت . 1 / 214
- 14 - المدارس الصوتية عند العرب-النشأة والتطور- علاء جبر، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1 1427 هـ / 2006 م
- 15- مناهج البحث اللغوي،رمضان عبد التواب،مكتبة الخانجي بالقاهرة ودار الرفاعي بالرياض، ط1،1403 هـ- 1983 م.
- 16- رسائل إخوان الصفا ، دار صادر بيروت ، دط ، دت ، ج 1 .
- 17- شرح كتاب أرسطو طاليس في العبارة للفارابي ، عني بنشره وقدم له : ولهم كوتش اليسوعي وستانلي مارو

- اليسوعي ، ط2 ، دار المشرق، بيروت.
- 18- المغني في أبواب التوحيد والعدل ، القاضي عبد الجبار ، نظم نصه إبراهيم الابيا بإشراف د / طه حسين ، وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، مطبع دار الكتب،دط رجب 1380 هـ/ديسمبر 1960 م الجزء الرابع ، خلق القرآن.
- 19- التفسير الكبير ، الفخر الرازي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ط3 ، دت، ج1.
- 20- عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، ابن أبي أصيبعة ، تحقيق نزار رضا ، مكتبة الحياة ، بيروت ، 1965
- 21- ابن سينا والموسيقى،ألكسندر جمايف،تر:نايف أبو كرم،مجلة التراث العربي،العددان:15 - 16،1984
- 22- علم الصوتيات عند ابن سينا ، محمد صالح الضالع ، دار غريب للنشر والتوزيع ، دط ، دت.